

المحاضرة الثالثة: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون

تبرز مكانة ابن خلدون باعتباره مؤسس علم الاجتماع قبل ظهوره في أوروبا بقرون، حيث لم يكن مجرد مؤرخ، بل مفكراً حاول تفسير الظواهر الاجتماعية تفسيراً علمياً. وقد تميز منهجه بالانتقال من سرد الأحداث إلى تحليل أسبابها وقوانينها.

إن أهمية ابن خلدون تكمن في كونه أول من بحث في "ال عمران البشري" باعتباره موضوعاً مستقلاً للدراسة، قائماً على قوانين يمكن ملاحظتها واستخلاصها.

أولاً: ظروف نشأة فكر ابن خلدون

شهد القرن الرابع عشر الميلادي، الذي عاش فيه عبد الرحمن بن خلدون، سلسلة من الأزمات العميقة التي مست بنية العالم الإسلامي، خاصة في بلاد المغرب والأندلس. فقد تجلت الأزمة السياسية في تفكك الكيانات الكبرى، ودخولها في صراعات مستمرة على السلطة، كما هو الحال بين الدول المرينية والحفصية والزيانية، وهو ما أدى إلى حالة من عدم الاستقرار وفقدان التوازن السياسي. هذه الصراعات لم تكن مجرد تنافس على الحكم، بل كانت تعبيراً عن ضعف البنية الداخلية للدولة وعجزها عن الحفاظ على تماسكها.

وبالتوازي مع ذلك، عرف المجتمع تحولات عميقة، حيث شهدت المنطقة تنقلات قبلية مستمرة، وتراجُعاً في الاستقرار العمراني، إضافة إلى انتشار الأوبئة، وعلى رأسها الطاعون، الذي خلف آثاراً مدمرة على السكان والاقتصاد، وأدى إلى تدهور المدن وانكماش النشاط الحضري. وقد ساهمت هذه التحولات في إضعاف الروابط الاجتماعية وإعادة تشكيل البنية السكانية، وهو ما أثر بشكل مباشر في دينامية العمران البشري.

أما على المستوى الفكري، فقد برزت أزمة واضحة في كتابة التاريخ، حيث سيطر الطابع التقليدي القائم على النقل والتكرار، وانتشرت ثقافة الاعتماد على المتن والحواشي والملخصات دون ممارسة النقد أو التمحيص. وأدى ذلك إلى غياب التفسير العلمي للأحداث التاريخية، والاكتفاء بسردها دون البحث في أسبابها العميقة.

في ظل هذه الأزمات المتداخلة، أدرك ابن خلدون أن فهم التاريخ لا يمكن أن يتحقق عبر الرواية فقط، بل يتطلب البحث عن القوانين التي تحكم الاجتماع البشري. ومن هنا، اتجه إلى تأسيس منهج جديد يقوم على النقد والتحليل، وربط الظواهر السياسية والاجتماعية بقوانين عامة تفسر نشأة الدول وسقوطها، وهو ما جعله يمهّد لظهور علم جديد يُعرف بعلم الاجتماع.

وهكذا، لم تكن هذه الأزمات مجرد خلفية تاريخية، بل شكلت الإطار الحقيقي الذي تبلور داخله المشروع الفكري لابن خلدون، حيث تحولت معاناته مع واقع مضطرب إلى دافع لبناء رؤية علمية جديدة في دراسة التاريخ والمجتمع.

ثانياً: مؤلفات ابن خلدون وأهمية "المقدمة"

يعد عبد الرحمن بن خلدون من العلماء الموسوعيين الذين جمعوا بين التاريخ والفكر الاجتماعي والسياسي، وقد خلف تراثاً علمياً مهماً، يأتي في مقدمته كتابه الشهير: "كتاب العبر وديوان المبتدئ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" وهو عمل تاريخي ضخم، تناول فيه أخبار العرب والعجم والبربر، إضافة إلى الدول والسلطنات التي عاصرها أو سبقته. ولا يقتصر هذا الكتاب على السرد التاريخي للأحداث، بل يتضمن محاولة لفهمها وتفسيرها في ضوء قوانين تحكم العمران البشري.

وختم "العبر" بفصل عنوانه "التعريف بابن خلدون" ذكر فيه نسبه وسيرته وما يتصل به من أحداث زمنه. ثم أفرد هذا الفصل، وجعله ذيلًا للعبر، وسماه "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً" ومن كتبه "شرح البردة" و"كتاب في الحساب" ورسالة في "المنطق" و"شفاء السائل لتهديب المسائل".

1_ الكتاب ومكانة المقدمة

استهل ابن خلدون هذا المؤلف بمقدمة نظرية طويلة، عرفت لاحقاً باسم "مقدمة ابن خلدون" وقد تحولت هذه المقدمة، مع مرور الزمن، إلى كتاب مستقل، نظراً لما تضمنته من أفكار أصيلة ونظريات مبتكرة، حتى أصبحت أشهر من الكتاب نفسه في بعض الأوساط العلمية.

تتميز هذه المقدمة بأنها لا تعد مجرد تمهيد تقليدي لكتاب تاريخي، بل هي دراسة علمية في طبيعة المجتمع الإنساني، وتحليل شامل للظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومحاولة لتأسيس علم جديد قائم على تفسير العمران البشري

2_ مضامين المقدمة ومحاورها الأساسية

اشتملت المقدمة على جملة من القضايا الكبرى التي تشكّل جوهر الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، من أبرزها:

- دراسة طبيعة الاجتماع الإنساني وبيان ضرورته

- تحليل العمران البشري في أشكاله المختلفة (بدوي/حضري)
- تفسير نشأة الدولة والسلطة ودورها في تنظيم المجتمع
- بحث الظواهر الاقتصادية مثل الكسب والصنائع
- دراسة العلوم والتعليم وأثرهما في تطور المجتمع
- الكشف عن القوانين التي تحكم تطور المجتمعات

وبذلك، انتقل ابن خلدون من مجرد وصف الأحداث التاريخية إلى تحليلها وتفسيرها تفسيراً علمياً.

3_ أهمية المقدمة في تاريخ الفكر الاجتماعي

تعد "المقدمة" من أهم الأعمال في تاريخ الفكر الإنساني، ويرجع ذلك إلى عدة اعتبارات نوجزها في ما يلي:

- طابعها العلمي حيث اعتمدت على الملاحظة والتحليل والبحث في الأسباب
- نزعتها التفسيرية إذ سعت إلى اكتشاف القوانين التي تحكم المجتمع
- شموليتها لتناولت مختلف جوانب الحياة الإنسانية
- سبقت ظهور علم الاجتماع الحديث وفلسفة التاريخ عند ارنولد توينبي بعدة قرون

ولهذا، اعتبرت "المقدمة" النواة الأولى لعلم الاجتماع، أو ما سماه ابن خلدون "علم العمران البشري" على الرغم من القيمة العلمية الكبيرة لـ"المقدمة"، فإنها لم تحظَ بالاهتمام الكافي في العالم الإسلامي لعدة قرون، إلى أن أعاد اكتشافها عدد من المستشرقين الأوروبيين في القرن التاسع عشر، ومن أبرزهم، فون هامر وشولتزر. وقد أشاد هؤلاء بأصالة فكر ابن خلدون، واعتبروه من رواد الفكر الاجتماعي، بل إن بعضهم لقبه بـ"مونتسكيو العرب" تقديراً لعمق تحليله السياسي والاجتماعي.

ثالثاً: تأسيس علم العمران البشري (علم الاجتماع)

1_ مفهوم علم العمران

يؤكد ابن خلدون من خلال كتابه العبرانه أسس علم جديد سماه "علم العمران البشري" (علم الاجتماع الإنساني)، وهو علم مستقل يتميز بموضوعه الذي عرف بالاجتماع الإنساني والعمران البشري، ومسائله تبحث في القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية. كما ميّزه عن علم الخطابة (الإقناع)، والسياسة المدنية (التدبير الأخلاقي) وبالتالي، فهو علم يدرس الواقع الاجتماعي كما هو وليس كما ينبغي أن يكون.

ويقوم علم العمران على فكرة أساسية مفادها أن المجتمع يخضع لقوانين وسنن ثابتة يمكن اكتشافها، وهو ما يجعل من العمران موضوعا للدراسة العلمية، وليس مجرد وصف للأحداث. ومن خلال هذا التصور، يصبح التاريخ علما قائما على الفهم والتفسير، لا على الحفظ والنقل.

2_ موضوع علم العمران

يركز هذا العلم على دراسة العلاقات بين البشر وتحليل أنماط التعاون والصراع والكشف عن القوانين التي تحكم الحياة الاجتماعية أي أنه يدرس الإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا يعيش ضمن جماعة وقسم ابن خلدون علم العمران إلى ستة مجالات رئيسية، تعد من أهم إسهاماته المنهجية، لأنه لم يكتفِ بدراسة المجتمع بصورة عامة، بل سعى إلى تفكيكه إلى مجالات مترابطة تساعد على فهمه تفسيريا علميا شاملا. ويمكن ايجاز هذه المجالات على النحو التالي:

أ) لعمران البشري العام

يقصد به الإطار الكلي الذي يضم حياة الإنسان في اجتماعها وتنظيمها، أي دراسة المجتمع الإنساني باعتباره ظاهرة عامة تخضع لقوانين ثابتة نسبيا. في هذا المجال، يهتم ابن خلدون ببيان طبيعة الاجتماع البشري، وضرورته لحياة الإنسان، باعتباره كائنا لا يستطيع العيش منفردا. كما يبحث في العوامل التي تحفظ تماسك المجتمع أو تؤدي إلى تفككه، واضعا بذلك الأساس النظري لما يمكن اعتباره مدخلا عاما إلى علم الاجتماع.

ب) لعمران البدوي

يركز هذا المجال على دراسة المجتمعات البدوية القائمة على الترحال، حيث تسود البساطة في العيش وقوة الروابط القبلية. ويبرز ابن خلدون دور العصبية باعتبارها العامل الأساسي في تماسك هذه المجتمعات وقدرتها على الصراع والبقاء. كما يرى أن البدو يمثلون المرحلة الأولى في نشأة الدول، إذ يمتلكون قوة الدفع التي تمكنهم من تأسيس الملك قبل أن يدخلوا مرحلة التحضر.

ج) العمران السياسي

يتناول هذا المجال نظم الحكم والسلطة، وكيفية نشأة الدولة وتطورها ثم انهيارها. ويحلل ابن خلدون طبيعة الملك، وأنواعه، والعوامل التي تمنح السلطة شرعيتها أو تؤدي إلى ضعفها. كما يربط بين القوة السياسية

والعصبية، معتبرا أن قيام الدول مرتبط بقوة التضامن الاجتماعي، بينما يكون سقوطها نتيجة الترف والفساد وضعف الروابط.

د) لعمران الحضري

يهتم هذا المجال بدراسة المدن باعتبارها مظهرا من مظاهر تطور المجتمع. فالتحضر عند ابن خلدون يمثل مرحلة متقدمة من العمران، تتميز بالاستقرار، وازدهار الفنون، وتنوع الحرف. لكنه في الوقت نفسه يحذر من أن الترف الزائد الذي يميز الحياة الحضرية قد يؤدي إلى الانحلال وضعف الدولة، مما يجعل الحضارة في نظره تحمل بذور فنائها في داخلها.

هـ) لعمران الاقتصادي

يبحث ابن خلدون هنا في مسألة المعاش وطرق الكسب، مثل الزراعة، والتجارة، والصناعة، ويؤكد أن الاقتصاد هو أساس قيام العمران واستمراره. كما يبرز دور العمل في إنتاج الثروة، ويتناول العلاقة بين الجهد البشري والقيمة الاقتصادية، في رؤية تعد من البدايات المبكرة للتحليل الاقتصادي. ويرى أن ازدهار الاقتصاد مرتبط بالاستقرار السياسي، بينما يؤدي الظلم والضرائب المفرطة إلى تراجعها.

و) لعمران الفكري

يتعلق هذا المجال بدراسة العلوم والتعليم والثقافة، حيث يربط ابن خلدون ازدهار المعرفة بازدهار العمران الحضري. فكلما تقدمت الحضارة، تنوعت العلوم وازدهرت المؤسسات التعليمية. كما ينتقد طرق التعليم القائمة على الحفظ والتلقين، ويدعو إلى التدرج في التعليم ومراعاة قدرات المتعلمين، مما يعكس وعيا تربويا متقدما.

رابعاً: أهم أفكار ابن خلدون في علم الاجتماع

1_ ضرورة الاجتماع البشري

يرى ابن خلدون أن الإنسان مدني بطبعه، وأن الاجتماع ضروري لسببين، الأول اقتصادي، حيث ان الفرد عاجز عن تأمين حاجاته لوحده اما السبب الثاني دفاعي أي أن الإنسان يحتاج إلى غيره لحماية نفسه فلا يمكن للإنسان أن يعيش خارج المجتمع.

2_ ضرورة السلطة (أو الوازع)

يؤكد ابن خلدون أن المجتمع يحتاج إلى سلطة تمنع الظلم والعدوان، وتنظم العلاقات بين الأفراد وقد تكون هذه السلطة قائمة على العصبية أو الدين أو العقل أو مزيج بينها. "يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"

3_ قانون الأطوار الثلاثة للمجتمع عند ابن خلدون

توصل ابن خلدون، من خلال دراسته للتاريخ الإسلامي وتحليله لعوامل نشأة الدول وازدهارها وانهيارها، إلى صياغة قانون اجتماعي يفسر حركة المجتمعات، عُرف بـ قانون الأطوار الثلاثة. ويقوم هذا القانون على تشبيه المجتمع بالكائن الحي، إذ يمر بمراحل متعاقبة تشبه مراحل حياة الإنسان من الميلاد إلى الفناء.

يرى ابن خلدون أن المجتمع يبدأ بمرحلة النشأة والتكوين، وهي تقابل مرحلة الطفولة عند الإنسان، وتتمثل اجتماعيا في طور البداوة أو القبلية، حيث تسود العصبية كقوة جامعة، وتكون الروابط الاجتماعية قوية، ويغلب على الأفراد طابع الخشونة والبسالة، مع حضور واضح للدعوة الدينية في توحيد الجماعة.

ثم ينتقل المجتمع إلى مرحلة النضج والاكتمال، التي تقابل مرحلة الشباب والرجولة، وتتمثل في طور التحضر، حيث تستقر الدولة وتترسخ دعائم الملك، ويعرف المجتمع نوعا من الازدهار والاستقرار، وتتحسن الأحوال الاقتصادية والمعيشية، ويقبل الناس على الترف والتمتع بثمار الحضارة والعمران.

غير أن هذا الازدهار لا يدوم، إذ يدخل المجتمع تدريجيا في مرحلة الشيخوخة والانحلال، وهي ما يعرف بمرحلة الهرم، حيث تبدأ عوامل الضعف في الظهور، فتتفكك العصبية، وينتشر الفساد في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية. ومع تفاقم هذه الأوضاع، تفقد الدولة قدرتها على الدفاع عن نفسها، لتقول في النهاية إلى السقوط، كما ينتهي الكائن الحي بالموت.

ويؤكد ابن خلدون هذه الفكرة بقوله إن الدولة إذا بلغها الهرم فلا سبيل إلى تجديد شبابها، مما يعكس حتمية هذا المسار في نظره.

كما يربط ابن خلدون بين هذه الأطوار وتعاقب الأجيال داخل الدولة، حيث يرى أن عمر الدولة غالبا ما يمتد إلى ثلاثة أجيال:

الجيل الأول ويتميز بخصائص البداوة من صلابة وشدة، وتكون العصبية فيه قوية، مما يمكنه من تأسيس الدولة وبسط نفوذها.

الجيل الثاني يشهد انتقالا نحو الحضارة والترف، حيث تضعف العصبية تدريجيا نتيجة الاستقرار والرخاء.

الجيل الثالث يفقد صفات البداوة كليا، ويعتاد على النعمة والكسل، فيصبح عاجزا عن حماية الدولة، مما يعجل بانهيارها.

وبذلك، يقدم ابن خلدون تفسيراً ديناميكياً لدورة حياة الدول، قائماً على الترابط بين العوامل الاجتماعية والسياسية، وعلى فكرة أن لكل دولة عمراً طبيعياً يشبه عمر الإنسان.

4_ أسباب التغيير الاجتماعي عند ابن خلدون

يعد موضوع التغيير الاجتماعي من القضايا المركزية في فكر عبد الرحمن بن خلدون، إذ سعى إلى تفسير التحولات التي تطرأ على المجتمعات والدول من خلال البحث في أسبابها العميقة والقوانين التي تحكمها. وقد اعتبر أن من بين مختلف العوامل المؤثرة في التغيير الاجتماعي، تظل العصبية العنصر الحاسم والشرط الأساسي الذي تقوم عليه حركة المجتمع وتطوره.

ففي مرحلة العمران البدوي، حيث تسود الحياة القبلية، تشكل العصبية دعامة أساسية لتماسك الجماعة وقوتها، إذ تقوم على روابط القرابة والتضامن، مما يمنح القبيلة القدرة على الدفاع عن نفسها والسعي نحو السيطرة. ويرى ابن خلدون أن هذه المرحلة تتميز بالبساطة والصلابة الأخلاقية، حيث تلعب القيم مثل الشجاعة والتعاون دوراً مهماً في تقوية البنية الاجتماعية.

وقد حدد ابن خلدون مجموعة من العوامل الديناميكية التي تدفع المجتمع البدوي إلى الانتقال نحو التغيير، ومن أبرزها العصبية التي تمنح القوة، والفضيلة التي تضبط السلوك، والدعوة الدينية التي تضيف شرعية روحية على المشروع السياسي، فتوحد الجماعات وتزيد من قدرتها على إقامة الدولة. ومن خلال تفاعل هذه العناصر، ينتقل المجتمع من مرحلة البداوة إلى مرحلة العمران الحضري.

وعند بلوغ هذه المرحلة، يصل المجتمع إلى درجة من النضج في التنظيم السياسي والاجتماعي، حيث تستقر الدولة، ويتعزز نفوذ السلطان، وتظهر مظاهر الرفاهية والتحضر. غير أن هذا الاستقرار يحمل في طياته بذور الضعف، إذ يؤدي الترف والانغماس في النعيم إلى تراجع روح العصبية، وانفراد الحاكم بالسلطة، مما يضعف الروابط الاجتماعية التي قامت عليها الدولة في الأصل.

كما تناول ابن خلدون عوامل فساد المجتمع وانهاره، فرأى أنها ترتبط أساساً بتدهور الأوضاع الاقتصادية، وانتشار الظلم، وارتفاع الضرائب، إلى جانب ضعف الوازع الديني والأخلاقي. وهذه العوامل مجتمعة تؤدي إلى تفكك المجتمع وانحلال بنيته، مما يمهد لسقوط الدولة.

وفي هذا الإطار، صاغ ابن خلدون ما يشبه قانونا اجتماعيا مفاده أن الدولة، إذا دخلت مرحلة الهرم، لا يمكن أن تستعيد قوتها من جديد، وهو ما عبر عنه بقوله إن الدولة إذا هرمت لا تنهض مرة أخرى، بل تفسح المجال لقيام دولة جديدة على أنقاضها.

5_ التطور الاجتماعي عند عبد الرحمن بن خلدون

يؤكد ابن خلدون، من خلال ملاحظاته وتحليلاته، أن المجتمعات البشرية ليست ثابتة، بل تخضع لحركة دائمة من التغيير والتطور. فالتبدل سمة ملازمة للحياة الاجتماعية، شأنها في ذلك شأن الظواهر الطبيعية التي لا تعرف الاستقرار المطلق.

ويرى أن أحوال الأمم، وعاداتها، وأنماط عيشها، لا تستقر على حال واحدة، وإنما تتغير بتغير الأزمنة والظروف، حيث تنتقل المجتمعات من وضع إلى آخر، وفق مسار تاريخي تحكمه عوامل متعددة. وهذا التغيير لا يقتصر على مجتمع بعينه، بل يشمل مختلف المجتمعات والدول، كما يشمل الأفراد والأفكار والأنظمة. وبذلك، يقر ابن خلدون بمبدأ الحركية الاجتماعية، معتبرا أن التغيير قانون عام يحكم العمران البشري.

6_ التقليد والقسر الاجتماعي

اعتقد علماء الاجتماع لفترة طويلة أن ظاهرة التقليد ارتبطت أساسا بأعمال غابرييل تارد، وأن فكرة القسر الاجتماعي تعود إلى إميل دوركايم. غير أن دراسة "المقدمة" تكشف أن ابن خلدون قد سبق هذين المفكرين في التنبيه إلى هاتين الظاهرتين وتحليلهما.

أ_ ظاهرة التقليد (المحاكاة)

يشير ابن خلدون إلى أن التقليد سلوك فطري في الإنسان، حيث يميل بطبعه إلى محاكاة غيره، خاصة من يعتقد فيهم التفوق والكمال. ويرجع ذلك إلى عوامل نفسية، أهمها:

▪ اعتقاد الإنسان بكمال الغالب

▪ ميله إلى الاقتداء بمن يملك القوة أو الهيمنة.

ومن ثم، فإن:

▪ المغلوب يميل إلى تقليد الغالب في مظهره وعاداته وسلوكه.

▪ يمتد هذا التقليد ليشمل اللباس، والثقافة، والعادات، وأنماط العيش.

ولا يقتصر هذا السلوك على الأفراد داخل المجتمع الواحد، بل يتعداه إلى مستوى العلاقات بين الأمم،

حيث تميل الشعوب المغلوبة إلى التشبه بالشعوب الغالبة عليها.

كما يلاحظ ابن خلدون أن هذه الظاهرة تبدأ منذ الطفولة، إذ يقلد الأبناء آباءهم نتيجة اعتقادهم بكمالهم، وهو ما يعكس الجذور النفسية والاجتماعية العميقة للتقليد.

ب_ القسر الاجتماعي

إلى جانب التقليد، يبرز ابن خلدون أهمية ما يمكن تسميته بالقسر الاجتماعي، أي قوة المجتمع في فرض أنماط سلوكية محددة على أفرادها.

فالعادات والتقاليد، في نظره، ليست مجرد اختيارات فردية، بل هي ضغوط اجتماعية تدفع الأفراد إلى الامتثال لها، وتجعل من الصعب عليهم الخروج عنها. فالفرد ينشأ داخل بيئة اجتماعية محددة، ويتشرب قيمها وأنماطها السلوكية، بحيث يصبح الالتزام بها أمراً شبه حتمي.

ويضرب ابن خلدون مثالا على ذلك بأن من نشأ في بيئة اعتادت على الترف والزينة، لا يستطيع بسهولة أن يخالف هذا النمط من العيش، لأن قوة العادة والتثنية الاجتماعية تدفعه إلى الالتزام بما ألفه المجتمع، كما يخشى من عواقب الخروج عن هذه الأعراف.